الجزء التاسع والعاشر المجلد الثاني والعشرون

مجلة
المجمع العلمي العربي

ايلول وتشرين الأول سنة ١٩٤٧ شوال وذو القعدة سنة ١٣٦٦

كنوز الأجداد

- ٥ -

ابن جرير الطبري

محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ابو جعفر

(٣١٠)

هذا رجل اشتغل لخدمة القرآن والحديث والفقه والتاريخ ولم يلتفت الى غير ما أخذ من نفسه، وهيأته الفطرة له، وعاش ما عاش وما عهد عليه ان زُنَّ بهناة أو حاد قِيدَ أنملة عن الخطة التي اختطها في خدمة العلم. كان مثالاً باهراً بألمعيته وحريته ودهائه ومضائه. تجسدت فيه الأمانة وهي الصفة الأولى للعالم فوقع الاجماع على قبول كلامه أو كاد. كان عارفاً كل المعرفة بسياسة العلم فوصل بأناته الى ان تم له ما أراده من صنوفه، وسعد بأن كتب البقاء لمصنفاته وستبقى من أهم المراجع ما بقيت اللغة العربية والشريعة المحمدية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولد بآمل طبرستان سنة خمس وعشرين ومائتين وتوفي في بغداد . وكان اسمر اعين نحيف الجسم مديد القامة فصيح اللسان ، نبغ في العلم صغيراً فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وصلى بالناس وهو ابن ثماني سنين وكتب الحديث وهو ابن تسع سنين ، وأخذ الفقه عن داود كما أخذ فقه مالك وفقه الشافعي ، وسمع الحديث في الري وبغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر حتى «جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه احد من اهل عصره» و «نظر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون ابواب الحساب وفي الطب» «وكان كالقارئ الذي لا يعرف الا القرآن وكالمحدث الذي لا يعرف الا الحديث وكالفقيه الذي لا يعرف الا الفقه وكالنحوي الذي لا يعرف الا النحو وكالحاسب الذي لا يعرف الا الحساب ... واذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلاً عن غيرها»

«ولما دخل مصر لم يبق احد من اهل العلم الا لقيه وامتحنه في العلم الذي يتحقق به قال فجاءني رجل فسألني عن شيء من العروض ، ولم أكن نشطت له قبل ذلك ، فقلت عليّ قول الا أتكلم اليوم في شيء من العروض ، فاذا كان في غد فصر اليّ ، وطلبت من صديق العروض للخليل بن احمد ، فجاء به فنظرت فيه ليلتي ، فأمسيت غير عروضي وأصبحت عروضياً» اي ان الرجل العارف بالقرآن البصير بالمعاني الفقيه بأحكام القرآن العالم بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها ، والحافظ اقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام والعارف بأيام الناس — لم يحب لنفسه جهلها بالعروض فدرسه في ليلته وحذقه كما يحذقه من اشتغل به أعواماً .

هذه اوجه درسه وبحثه والأهم من هذا ما امتاز به من اخلاقه وعقله وبها عدّ اماماً من أئمة العلم «يحكم بقوله ويرجع الى رأيه» «وتفرد بمسائل حفظت عنه» فله مذهب خاص انقطع اتباعه فيه بعد الاربعمائة ، وكان أظهر مذهب الشافعي وأفتى به عشر سنين ، قال الفرغاني فلما اتسع علمه أداه اجتهاده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبحثه الى ما اختاره في كل صنف من العلوم في كتبه وهذه فقدت أي كتب مذهبه .

قالوا لما دخل بغداد كانت معه بضاعة يتقوت منها فسرقت فقال له بعض اصدقائه : تنشط لتأديب ولد الوزير ابي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر ، فلما كتب الصبي اخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين فلم تبق جارية الا أهدت اليه صينية فيها دراهم ودنانير فرد الجميع وقال : قد شورطت على شيء وما هذا لي بحق ، وما آخذ الا ما شورطت عليه . ولما قال له الوزير ان أمهات الأولاد غممن في رده قال : هؤلاء عبيد والعبيد لا يملكون شيئاً فعظم ذلك في نفس الوزير . وكان ربما اهدى اليه بعض أصدقائه الشيء من المأكول فيقبله اتباعاً للسنة ويكافئه لعظم مروءته أضعافاً ، وربما يجحف به فكان اصدقاؤه يجتنبون مهاداته .

ولما ورد مصر في سنة ٢٥٦ نزل على الربيع بن سليمان فأمر من يأخذ له داراً قريبة منه قال وجاءني اصحابه فقالوا : تحتاج الى قصرية وزير وحمارين وسدة فقلت اما القصرية فانا لا ولد لي وما حللت سراويلي على حرام ولا على حلال قط وأما الزير فمن الملاهي وليس هذا من شأني ، واما الحماران فان ابي وهب لي بضاعة انا استعين بها في طلب العلم فان صرفتها في ثمن حمارين فبأي شيء أطلب العلم . قال : فتبسموا . فقلت : الى كم يحتاج هذا ؟ فقالوا يحتاج الى درهمين وثلثين فأخذوا ذلك مني وعلمت انها اشياء متفقة وجاءوني بأجنة وجب للماء واربع خشبات قد شدوا وسطها بشريط وقالوا : الزير للماء والقصرية للخبز والحماران والسدة تنام عليها من البراغيث فنفعني ذلك . وكثرت البراغيث فكنت اذا جئت نزعت ثيابي وعلقتها على حبل قد شددته واتزرت وصعدت الى السدة .

بقي ابن جرير يعيش من مال ابيه وكان ابوه من اهل اليسار وقد يضيق ولا يسف الى تناول شيء من احد مهما عظمت منزلته ، وظل قانعاً بما يرد عليه من قرية يسيرة خلفها له ابوه بطبرستان وابطأت عليه نفقة والده مرة فاضطر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى ان يفتق كمي القميص ويبيعها . اراد المكتفي الخليفة ان يقف وقفاً يجتمع أقاويل العلماء على صحته ويسلم من الخلاف فأحضروا ابن جرير فأملى عليهم كتاباً لذلك فأُخرجت له جائزة سنية فأبى أن يقبلها فقيل له لا بد من جائزة أو قضاء حاجة فقال : نعم الحاجة اسأل امير المؤمنين ان يتقدم الى الشرط ان يمنعوا السؤّال من دخول المقصورة يوم الجمعة فتقدم بذلك وعظم في نفوسهم .

أرسل العباس بن الحسن الوزير الى ابن جرير قد أحببت ان انظر في الفقه وسأله ان يعمل مختصراً فعمل له كتاب الخفيف وأنفذه ، فوجه اليه الف دينار فلم يقبلها ، فقيل له تصدق بها فلم يفعل . ولما تقلد الخاقاني الوزارة وجه اليه بمال كثير فأبى ان يقبله فعرض عليه القضاء فامتنع فعاتبه اصحابه وقالوا له : لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد درست وطمعوا في ان يقبل ولاية المظالم فانتهرهم وقال : قد كنت أظن اني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه . ونحن نقول ان هذه العطايا لو منحها الامامان ابو يوسف والفخر الرازي لاستحلا أخذها وشكرا عليها وضماها بلباقة الى اموالها العظيمة . وابن جرير بهذا الإباء يبقى اسمه مقدساً بكل شفة ولسان على مر الزمان .

ومن شعر الطبري :

اذا أعسرت لم يعلم رفيقي   واستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي   ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو اني سمحت ببذل وجهي   لكنت الى الغنى سهل الطريق

وقال : خلقان لا ارضى طريقهما   بطر الغنى ومذلة الفقر
فاذا غنيت فلا تكن بطراً   واذا افتقرت فته على الدهر

مثال من بعد نظره وسعة عقله وعلمه بزمانه : لما خلع المقتدر وبويع ابن المعتز دخلوا على ابن جرير الطبري فقال : ما الخبر ؟ قيل بويع ابن المعتز ، قال : ومن رشح لوزارته ؟ قيل ابن الجراح . قال : فمن ذكر للقضاء ؟ قيل : ابو المثنى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

فأطرق ثم قال : هذا أمر لا يتم ، قيل : وكيف ؟ قال : كل واحد من هؤلاء متقدم في معناه ، والزمان مدبر والدنيا مولية ، فما أرى هذا الا الى الاضمحلال . وكان كما قال جرت حرب بين غلمان المريدين للمقتدر وبين المريدين لابن المعتز فانهزم ابن المعتز وتفرق أصحابه ثم امسك وحبس ليلتين وقتل خنقاً فكانت خلافته يوماً واحداً .

واذا عرضنا لذكر تآليف ابن جرير فانا نرى أعظمها تفسيره وتاريخه اما تفسيره فقد جوده وبين فيه أحكام القرآن وناسخه ومنسوخه ومشكله وغريبه ومعانيه واختلاف اهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله والصحيح لديه من ذلك واعراب حروفه والكلام على الملحدين فيه والقصص وأخبار الأمم والقيامة وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب كلمة كلمة وآية آية من الاستعاذة الى ابي جاد ، فلو ادعى عالم ان يُصنّف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد عجيب مستقصى لفعل . وقد ضرب التوحيدي المثل بتفسير ابن جرير واسمه «جامع البيان» وقال السيوطي من المتأخرين انه يوجه الأقوال ويرجح بعضها على بعض ويعرب ويستنبط فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين .

أطال ابن جرير في تفسيره وفي تاريخه وكانت النعمة على العلم في هذا التطويل . وكان من نيته ان يتوسع اكثر مما توسع فقد ذكروا انه قال لأصحابه قبل وضع هذين الكتابين العظيمين : اتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ فقال ثلاثون الف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة . ثم قال : هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا ؟ قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير فأجابوا بمثل ذلك فقال : انا لله ماتت الهمم ، فاختصره في نحو ما اختصر التفسير .

أما تاريخه فقد رتبه على السنين وضمنه ما خلت منه الكتب التي في الأيدي واستفاد الناس من تطويله الذي ما ارتضاه وعده مختصراً . وصفه المسعودي المؤرخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

فقال انه الزاهي على المؤلفات والزائد على الكتب فقد جمع الأخبار ، وحوى فنون الآثار ، واشتمل على ضروب العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته وتنفع عائدته وكيف لا يكون كذلك ومؤلفه فقيه عصره ، وناسك دهره ، واليه انتهت علوم فقهاء الأمصار ، وحملة السير والآثار .

وأكثر اعتماد ابن خلدون المؤرخ في النقل على تاريخ ابن جرير هذا ، قال لأنه أوثق من رآه في ذلك وابعد عن المطاعن في كبار الأمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة والتابعين . كلام حق وفي كتابه تقرأ تؤدة العلماء ووقار الحكماء وتقتنع انك تنفذ الى حقائق التاريخ لأن مؤلفه متصف بصفات الكمال لا مطعن عليه في شيء حتى صار كتاب «الرسل والملوك» المصدر الأول في التاريخ الاسلامي أخذ عمن تقدمه ومنهم من أهل الأهواء المخالفين لمذهبه كأبي مخنف فاقتبس من كلامه ما راقه واعتقد صحته . اخذ النقاوة وترك النفاوة . كتابه المصدر الوحيد لكل من جاء بعده يجد فيه كل طالب بغيته ويتجسم له الصدق يتدفق من خلال كلامه لا يجرح سليماً ولا يوثق كذوباً ولا يقذف في عظيم ولا يتهم بريئاً .

قال صاحبه الفرغاني كان محمد بن جرير ممن لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يعدل في علمه وتبيانه عن حق يلزمه لربه وللمسلمين الى باطل لرغبة ولا رهبة مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد وأما اهل العلم والدين فغير منكري علمه وفضله وزهده وتركه الدنيا مع اقبالها عليه ، وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة .

تعصب عليه الحنابلة ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم ، ولذلك سبب وهو ان الطبري جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنف مثله ، ولم يذكر فيه احمد بن حنبل ، فقيل له في ذلك فقال : لم يكن فقيهاً وانما كان محدثاً فاشتد ذلك على الحنابلة فشغبوا عليه ، وكانوا في بغداد يشغبون لأقل من هذا ، حتى اضطر اصحابه ان يدفنوه في بيته مخافة ان تطول اليه ايدي الحنابلة بالايذاء بعد وفاته .

قال المؤرخون ادعوا عليه الرفض ثم ادعوا عليه الالحاد !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه سيرة من أطيب سير الرجال تقلّ في وصف صاحبها ما اعتاد الناس ان يطلقوه من الألفاظ في وصف العلماء العاملين وكفى ان يقال انه كان مأموناً على الاسلام وعلى تاريخه وانه ما حاد ذرة عن هدى ارباب الأخلاق وما عدت له سقطة يسقط فيها اكثر الآدميين ·

المسعودي

ابو الحسن علي بن الحسين بن علي الهذلي

(٣٩٦)

قيل انه من ذرية عبد الله بن مسعود الصحابي ، ولد في أرض بابل وسكن ببغداد ونزل البصرة ودأب في ريعان العمر على البحث في أخلاق الشعوب وطبائع الأمم ودرس المظاهر الطبيعية والجغرافية والفلكية وكان اخبارياً علامة صاحب غرائب وملح ونوادر ومن المكثرين من التأليف والمجودين فيه ·

سكن الشام ومصر مدة طويلة وفي سنة ٣١٤ كان في طبرية وفي سنة ٣٣٢ زار انطاكية ومدن الحدود الشامية وبعد رحلة قصيرة عاد الى البصرة وتوطن دمشق سنة ٣٣٤ وفي مصر مات سنة ٣٤٥ او ٣٤٦ ترجم له صاحب طبقات الشافعية على انه شافعي وقيل انه كان معتزلي العقيدة وقال صاحب روضات الجنات انه من اصحابه الامامية وانه الشيخ المتقدم الكامل باعتراف العدو والولي · وعده النجاشي من رواة الشيعة وقال ان له كتباً في اثبات الوصية لعلي بن ابي طالب · وقالوا انه مأمون الحديث عند العامة والخاصة · يعنون بالعامة اهل السنة وبالخاصة الشيعة · وظاهر كلامه في كتابه «مروج الذهب» انه عامي او شيعي متقي ولم يقبله بعض رجال الشيعة في جملتهم لأنه ذكر في مروج الذهب ايام خلافة الأول والثاني ثم خلافة علي ثم خلفاء بني أمية ثم بني العباس وذكر سيرهم وآثارهم وقصصهم وأخبارهم على طريقة العامة ونحو تواريخهم من دون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تعرض لذكر مساويهم وقبائحهم كظلمهم أهل البيت وغير ذلك . ومعنى هذا انهم يريدون السكوت عما وقع وان يطعن على كل من ولي الخلافة على غير شرطهم . والمسعودي ممن آمن على ما يظهر بالأمر الواقع وما أحب ان يخرج عن طور المؤرخ في الجملة ولو نظرنا بعض ما قاله في يزيد بن معاوية مما لا يؤيده التاريخ لشهدنا انه خدم التشيع خدمة ناقض فيها ثقات أصحاب الأخبار .

وربما كان المسعودي ممن يهتم للتاريخ اكثر من اهتمامه بأن يقال فيه انه شيعي او سني . ومما امتاز به بين مؤرخي القرون الأولى انه كان من عشاق الرحلات طاف كما قال بلاد السند والزنج والصنف (جنوبي الكوشنشين) والصين والزابج (جاوة) وتقحم الشرق والغرب فتارة بأقصى خراسان وتارة بواسط وإرمينية واذربيجان والران والبلقان ، وطوراً بالعراق وطوراً بالشام . وقال انه فاوض اصناف الملوك على تغاير اخلاقهم ، وتباين هممهم وتباعد ديارهم ، ومع ان عصره خير عصور العلم في الاسلام شكا من كساده قائلاً ان العلم قد بادت آثاره ، وطمس مناره ، وكثر فيه الغباء وقل الفهماء ، فلا تعاين الا موهاً جاهلاً ، ومتعاطياً ناقصاً .

قد يذهب الظن ان صحت شيعية المسعودي الى انه تأثر بالدعوة الفاطمية او انه كان من دعاة الفاطميين وقد قاموا في أيامه بدعايات منظمة في وادي النيل وما اليه قبل ان يفتحها قائدهم جوهر الصقلي بزمن . ولا يعقل الا يطلع على دعوتهم ويطالبونه او يطالب نفسه بخدمتهم وهو الذي عرف من انحطاط بني العباس في أيامه ما تعالم أمره وله من مذهبه ما يحمله على الدعوة لآل البيت ، على انه لم يتعرض لهم كثيراً فيما وصلنا من كلامه ، وقد ألف كتاب «التنبيه والاشراف» في سنة ٣٤٥ ودولة الفاطميين قامت في افريقية سنة ٢٩٦ وما انفك العبيديون يغزون مصر منذ سنة ٣٠١ ويبثون في الأرجاء دعاتهم ويدعون سراً الى مذهبهم . هذا رأي لنا والأيام كفيلة بكشف ما اذا كان شيعياً أو جماعياً او في حالة بين بين .

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم نعرف في الواقع نوع الدراسات التي تمحض لها المسعودي لأول أمر وكان من أساتذته نفطويه وابو خليفة الجمحي ، والبادي من كتبه انه عُني بالتاريخ والجغرافيا كل العناية وكذلك الأدب والمقالات والنحل وطبقات الأرض والمعادن والجواهر والفلك والسياسة والرجال . وما نقل من معلومات عن الشعوب والأمم والأجناس وتاريخها كان فيه اماماً عظيماً عاونه على الاجادة ولوعه بالبحث وهو ممن كتبوا عن مشاهدة وما وصفه من الأمصار والأقطار دليل على سعة معارفه وشدة ملاحظته حتى ليكاد يحسب ما كتبه من هذا القبيل المرجع الوحيد في بعض الموضوعات وقد يتفق الا يتعمق في درس بعض المسائل ويذكرها كما رويت له ، لذلك أورد أساطير وخرافات أخذها قضية مسلمة ولم يعلق عليها نقداً من عنده ، وليس لنا ان نطعن عليه في ذلك لأن ما نقله كان شائعاً وهو يرمي الى تصوير الأفكار في عصره وبتفلسف ما وسعته بيئته .

ألف المسعودي في ضروب المقالات وأنواع الديانات ككتاب « الابانة عن أصول الديانة » وكتاب « المقالات في أصول الديانات » وكتاب « سر الحياة » وكتاب « نظم الأدلة في أصول الملة » وما اشتمل عليه من أصول الفتوى وقوانين الأحكام وكتاب « الاستبصار في الامامة » ووصف اقاويل الناس في ذلك من اصحاب النص والاختيار وكتاب « الصفوة في الامامة » . وكتب في السياسة المدنية واجزاء المدنية والابانة عن المبادئ وكيفية تركيب العوالم والأجسام السماوية ، وما هو محسوس وغير محسوس من الكثيف واللطيف . وبعض كتبه تثبت انه كان صاحب منزع سياسي كما كان داعية علم ومدنية ولذلك رأيناه يعاشر اليهود وغيرهم من أرباب النحل وقد نوه في التنبيه والاشراف بأحبار اليهود في عصره ممن عنوا بترجمة التوراة من العبرية .

وأهم كتبه المشتهرة « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » وهو لا يفتأ يحيل في كتابيه هذين على كتاب « أخبار الزمان » وكتابه الأوسط وفنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعارف وذخائر العلوم وتدابير الممالك والعساكر والاستذكار لما جرى في سالف الأعصار . وضمن كتابه مروج الذهب خلاصة ما تضمنته كتبه السالفة في التاريخ جعله تحفة للأشراف من الملوك واهل الدرايات وقال انه لم يترك نوعاً من العلوم ، ولا فناً من الأخبار ، ولا طريقة من الآثار ، الا أورده في كتابه مفصلاً أو مجملاً أو اشار اليه واودع كتابه التنبيه والاشراف لُمعاً من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وكيفية افعالها والبيان عن قسمة الأزمنة وفصول السنة والرياح ومهابها والأرض وشكلها وتأثيراتها في سكانها . وذكر الأقاليم السبعة وعروض البلدان وأطوالها ، والأهوية وتأثيراتها ، والبحار والأنهار ، ثم تكلم على الدول القديمة كالفرس والسريان والروم وعلى دولة العرب من عصر الجاهلية الى قبيل وفاته سنة ٣٤٥ .

قال انه ما دعاه الى تأليف كتبه هذه في التاريخ واخبار العالم محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء ، وان يبقى له ذكراً محموداً ، وعلماً منظوماً عتيداً ، لأنه وجد مصنفي الكتب بين مجيد ومقصر ، ومسهب ومختصر ، ولأنه وجد الأخبار زائدة وربما غاب البارع منها على الفطن الذكي . ولكل واحد قسطه يخصه بمقدار عنايته ، ولكل اقليم عجائب يقتصر على عملها اهله ، وليس من لزم حجرات وطنه وقنع بما نُمي اليه من الأخبار عن اقليمه ، كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار . واستخرج كل دقيق من معدنه ، وأثار كل نفيس من مكمنه . قال ولو كان لا يؤلف كتاباً الا من حوى جميع العلوم ، اذاً ما ألف أحد كتاباً ولا تأتى له تصنيف .

قال العلامة بروكلمان ان الاضطراب المتواصل في حياة المسعودي قد عين صورة انتاجه الأدبي وقد خلف عما طافه من البلاد المتاخمة للأقطار الاسلامية معلومات ثمينة . وكان عرضه لما جمعه من المواد يشبه بنقصه بحثه اذ لم يتبع نظاماً معيناً وكان يحيد ابداً عن موضوعه ويستطرد استطرادات يراها ضرورية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتناولت ابحاثه ما كان يهم معاصريه من المعارف تقريباً كالفلسفة الطبيعية والأدب والسياسة والملل والنحل .

أما العلامة كترمير فقد احسن ظنه بالمسعودي أكثر من هذا وقال انه كان اجدر بالمؤرخين والجغرافيين العرب المتأخرين ان يتخذوا المسعودي اماماً في تاريخ الأديان والعلوم دون هؤلاء المؤرخين الرواة الجهلة المقصرين في التمحيص والنقد وقد حداه على درس أخلاق الشعوب وآرائهم ومذاهبهم حب الاستطلاع العلمي وبراءته من التعصب لرأي من الآراء ومذهب من المذاهب مما جعله على اتصال بالعلماء من كل مذهب ونحلة . وقال العلامة مايرهوف ولسنا نعرف شيئاً عن فلسفته وغاية ما علمنا انه كان على صلة مستديمة مع فلاسفة بغداد ولم يبق من كتبه العشرين تقريباً وياللأسف الا كتاب التنبيه والمروج وجزء من كتاب أخبار الزمان وهي كتب غاصة بالأخبار التاريخية والجغرافية وبأخبار الملل والنحل وضياع كتبه الأخرى خسارة لتاريخ العلوم في مبدئها عند العرب لا يمكن تعويضها .

كشفنا القناع بعض الشيء عن حياة المسعودي وذلك بالرجوع الى كتابيه المروج والتنبيه والى ما قاله من نظروا في سيرته من العرب والافرنج فثبت انه من أفراد الدهر بعلمه وبحثه وبعد همته وغرامه بالتنقل في الآفاق بما لم يوفق الى احتذاء مثاله من سبقوه ولحقوه . لا جرم ان المسعودي المؤرخ يعرف مضرة التحزب بسمعته فلم يسعه وهو غير راض عن بعض الخلفاء الا ان يذكر تاريخهم ولو بلسان جمجم فيه وتعتع ، وهذه الأخطاء التي ارتكبها عمداً او عن غير عمد فعبث ببهاء الحق في بعض احكامه لم تحل دون الانتفاع بتآليفه . ولشيعية المسعودي مدخل كبير في آرائه لأن من جوزوا الكذب على مخالفيهم وغلوا في حب الطالبيين حتى جعلوهم فوق البشر وزعموا لهم الكمال المطلق وان المعاصي حلال لهم حرام على غيرهم لا يؤتمنون على التاريخ . والمتعصب لفئة يجب الاحتياط في الأخذ عنه بخلاف المتسامح الذي لا ضلع له مع أحد . وما خدم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

به المسعودي التشيع لم يرض به الشيعة فهو مخالف للاماميين والجماعيين وكل فريق يريده ان يكون له وحده وان يقبل مذهبه بحذافيره ويدافع عنه بالحق والباطل . والتشيع ما كان باديء ذي بدء الا بتفضيل علي بالامامة على الشيخين حتى ان الشريف الرضي من أكبر أئمتهم كان يترضى عن الشيخين ويشمئز ممن ينالهما بسوء ويقول انهما وليا وعدلا وكذلك شأن جده الأعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كان يقول ان ابا بكر وعمر ماظلماني ذرة وان ابا بكر اسلم وانا جذعة أي فتى ، أقول فلا يسمع لقولي فكيف اكون أحق بمقام ابي بكر .

عفا الله عن قوم اعمتهم السياسة فأنشأوا من حزب سياسي مذهباً دينياً وكفروا كل من لم يوافقهم على هواهم وجاء متأخروهم فأدخلوا في معتقداتهم ما لم يقل به متقدموهم من اخلص الناس لدعوتهم وفرقوا بين اجزاء القلوب . وأشد ما يرمض النفوس في هذا الباب ان يعبث بالتاريخ من أجل المذهب ويموه السخفاء ليصوروا الاحداث على ما يشاؤن لتأييد مذهبهم [1] .

ابن خلدون

ولي الدين ابو زيد عبد الرحمن بن محمد

(٨٠٨)

جرى أكثر المؤلفين على اتباع سنن من قبلهم في نظام تآليفهم ونظام تفكيرهم لا يخرجون عما كتبوه ولا يبدلون فيما دونوه . وقد بلغ ببعضهم ان يأخذوا من الماضين الفاظهم ومعانيهم لا يخرمون منها حرفاً ، ولذلك هان التأليف على

(١) ومن سفهائهم رجل اسمه شهراشوب من أهل القرن السادس كتب كتاباً في مناقب آل ابي طالب حشاه كذباً واختلافاً ما نظن عاقلاً في الأرض يوافقه عليه . وكتابه من اسخف ما أثر من سلسلة تلك السخافات شتم فيه الصحابة الكرام كلهم ما عدا ضمة منهم كانوا مع علي واختلق كل قبيح ألصقه برجال لا يدين الاسلام لغيرهم في انتشاره وأورد من الشعر لاثبات أباطيله ما هو سبة على قائله وناقله على وجه الدهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

الضعاف وندر الايجاد والاجادة . وفي اهل هذه الطبقة من أرباب التواليف تقرأ مئات من الصفحات ولا تخرج منها الا بزبدة قليلة حتى ليسوء ظنك بالمؤلفين وتعتقد ان منهم من لم يجرؤ على التأليف الا ليحشر نفسه في زمرتهم فقط .

كان ابن خلدون من النوابغ الذين استعملوا عقولهم فيما قرأوا ورددوا رأيهم فيما رووا وفتح لنفسه باب الاستنباط والاستنتاج فتجلى بعد نظره فيما كتب وأتى بالجديد الذي لم يؤثر عمن قبله مذ كان الاسلام . وما قلد القدماء في الموضوع الذي أهمه في فلسفة التاريخ والاجتماع بل ابتدعه ابتداعاً على غير مثال .

وكان التاريخ الى عصر ابن خلدون لا يتعدى نقل الحوادث تنقل بالرواية كما ينقل الحديث وغاية اجادة المجيد فيه ان ينقل ما قرأ وشهد وسمع بأمانة ويترك للقارئ حريته يفكر بنفسه فيما انطوت عليه الحوادث من العبر . وقد تقرأ في التاريخ مجلداً ضخماً للأوائل ولا تقع فيه على فكر لمؤلفه ولا ترجيحاً لرواية على أخرى كأن المؤلف يخشى ان يكفر او يفجر اذا شذ عن طريق من تقدموه . وقد يكتفي بعض من يترجمون للرجال اذا حاولوا تصوير احدهم على ما يعتقدونه الصواب ان يلعنوا كل من لا ترضيهم سيرته وعقيدته ليثبتوا للملإ صحة اعتقادهم وسلامة احكامهم . والمذاهب عندهم العامل الأعظم في المدح والقدح يجمجمون لا يصرحون فيظلمون الحق بما يتعمدون من القاء الظلام على سيرة من لا يسعهم الا طرده من حظيرة الناجين ، كأن التاريخ بعض كلام الصوفية والباطنية له ظاهر وباطن .

ولما سعد العلم العربي بنبوغ ابن خلدون وطبق في التاريخ الغابر على الحاضر واستخرج من مادته المبعثرة عصارة مفيدة تألف منها علم برأسه ، فيه دخل كبير للعقل ومجال للتفكير جعل منه جسماً حياً وأخرجه بحذاقته من عقمه وجدبه الى خصب وامراع ، ولم يعد روايات مروية وعبارات مسرودة مرصوصة مطولاتها كمختصراتها وغثها كسمينها وآض فناً يتفنن المفتنون في الأخذ منه والقياس على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قواعده وتبدت شخصية المؤلف فيما كتب وظهرت شجاعته في التصريح بالحقائق الرائعة .

أعظم شرف للعلم العربي ان يكون واضع فلسفة التاريخ والاجتماع عربياً صرفاً بأصله وتربيته ومنشأه . كان اجداد ابن خلدون في حضرموت من عرب اليمن ينسبون الى وائل بن حجر من اقيال العرب . وكان وائل بقية ابناء الملوك دخل على رسول الله وأدناه من نفسه وقرب مجلسه وبسط له رداءه وأجلسه عليه مع نفسه وقال : « اللهم بارك في وائل وولده واستعمله النبي على الاقيال من حضرموت » . وقد دخل جد ابن خلدون خالد بن عثمان او خلدون بن عثمان الأندلس في القرن الثالث ونزل بقرمونة في رهط من قومه الحضارمة ثم انتقل الى اشبيلية في جند اليمن . وتولى أفراد أسرته المناصب الجليلة في دول الأندلس ونزلوا في القرن السابع تونس وفيها ولد عبد الرحمن ونشأ وقرأ على علمائها علوم اللسان والشرع وقرأ الفلسفة والمنطق ودخل في خدمة الدولة وهو في الحادية والعشرين من عمره ، ثم اعتزل الخدمة ثم دخل في خدمة صاحب تلمسان ثم استدعي الى فاس بطلب علمائها (٧٥٥) فتقلد امانة سر السلطان واغتنم هذه الفرصة لاتمام علمه على علماء المغرب الأقصى وفي سنة ٧٥٧ غضب عليه الملك وسجنه مرتين فقضى في الحبس سنتين ثم أعيد الى منصبه وجعل قاضياً للقضاة وعاد فنكب أيضاً لما هلك الملك ثم سمح له بالذهاب الى ابن الأحمر صاحب غرناطة وسفر عنه الى ملك قشتالة الاسباني فأنجحت سفارته .

وبعد زمن عاد الى افريقية (تونس) وتولى منصب الحاجب وجمع بين الحجابة والخطابة والتدريس في بلده . وكانت له سفارات بين صاحب تلمسان وصاحب تونس لعقد تحالف بينهما . وبعد حين تخلى عن منصبه في تلمسان بانهزام صاحبها وتولى لمن جاء بعده ما كان يتولاه من المناصب . وفي سنة ٧٧٤ رحل الى فاس ومنها الى غرناطة فنفاه صاحبها الى تلمسان فلقي من اميرها كل تجلة ، وعندئذ رأى اعتزال خدمة الملوك وانقطع الى قلعة ابن سلامة حيث بدأ بتأليف تاريخه الكبير .

وحج في سنة ٧٨٤ وجاء الاسكندرية والقاهرة ودرّس في الجامع الأزهر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعين قاضي المالكية في مصر وفي غضون هذه الأيام نكب ابن خلدون نكبة دونها النكبات وهو ان حرمه وأولاده وامواله حملت في البحر من الغرب الى الاسكندرية فغرقت كلها في ميناء هذا الثغر ولم ينج منهم انسان وفي سنة ٨٠١ رافق سلطان مصر الى الشام في الحملة على تيمورلنك واجتمع الى هذا الفاتح وقدم له هدية هي عبارة عن مصحف وسجادة وعلب حلوى مصرية وسأله الفاتح ان يكتب له رسالة في جغرافية بلدان المغرب فكتبها في اثنتي عشرة من الكراريس المنصفة القطع في أيام قليلة . وكان يحاذر ان يأمره تيمور بالشخوص معه الى سمرقند فنجا منه بلباقة ورجع أدراجه الى وادي النيل .

وفي « معلمة الاسلام » ان ابن خلدون ربما ظهرت فيه خصائص سياسية لامعة في المناصب الخطيرة التي تولاها بيد انه لم يتردد قط في الابتعاد عن رئيس له بالأمس ليدخل من الغد في خدمة آخر وان يكون على الملك السالف إلباً ، وكان من مهارته بل من صدقه ان يسير الى جانب القوي . وقد تدخّل مباشرة في عامة سياسة ممالك شمالي افريقية والأندلس لعهده وكان له من جلالة مناصبه ما تمكن معه من الحكم على هذه الدول حكم العارف الدراكة اه .

هذه حياة ابن خلدون السياسية التي أوحت اليه وضع تأليفه اعانه على ذلك كما قال عن نفسه انقطاعه اربعة اعوام في قلعة ارلاد سلامة متخلياً عن الشواغل وأكمل المقدمة « على ذلك النحو الغريب » الذي اهتدى اليه في تلك الخلوة « فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها . » وأملى الكثير من حفظه ثم صحح ونقح وراجع . والمقدمة في طبيعة العمران وما يعرض له قال انا استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على اكثر مما كتبنا فليس على مستنبط الفن احصاء مسائله وانما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه ، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً الى ان يكمل . وقال وهذا الفن الذي لاح لنا النظر منه نجد منه مسائل تجري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم الا انها غير مستوفاة فان فاتني شيء في احصائه واشتبهت بغير مسائله فللناظر المحقق اصلاحه ولي الفضل لأني نهجت له السبيل واوضحت له الطريق .

فلسف ابن خلدون التاريخ في مقدمته ولم يسبقه الى ذلك غير أفراد جاءت على أسلات اقلامهم سوانح قليلة لا تكاد تذكر في جنب هذه الافاضة ، وهذه القواعد التي سنها والدساتير التي اخترعها هي مما لم يختل منه مع الأيام الا ما لا بال له . فقد زيف اقوال الوضاعين في أحاديث المهدي وردها كلها من طريق النقل والعقل وما جسر احد قبله على نقض هذه الخرافة التي قال بها أهل الأهواء ومن سعوا لاستخدام هذا الاسم لانشاء دولة جديدة . وأبطل علم الكيمياء وأنكر ثمرتها وقال باستحالة وجودها وما ينشأ عنها من المفاسد . وقال بفساد صناعة النجوم وتكلم عن الجفر والملاحم فزيف هذين الفنين تزييفاً جيداً وتكلم في الدفائن والكنوز وقال انها لا أصل لها في علم ولا خبر .

جمع ابن خلدون كل ما تفرق في فقه الشريعة وفقه العلوم وما الى ذلك ونسقها ووحدها ، والقدر الذي جرأ على التصريح به من الأفكار في هذا الباب لا يرتضيه كثير من المنظور اليهم في عصره . وحاول ان يبطل الفلسفة ويبين فساد منتحليها ومع هذا قال ان هذا العلم يشحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجاج لتحصل ملكة الجودة والصواب في البراهين فيستولي الناظر فيها على ملكة الاتقان والصواب في الحجاج ورأى الا يكب أحد على الفلسفة اذا كان خلواً من علوم الملة وقال وان الفلسفة ببلاد الافرنجة من أهل رومية وما اليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق لعهده وان رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة .

ودعا الى تعلم الهندسة والعلوم العددية (الحساب والجبر والمقابلة) وعلم الهيئة وعلم المنطق والطب والفلاحة . وجمجم في كلامه على علوم الطلسمات وقال ان الشريعة جعلت السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر وخصته بالحظر والتحرم وذكر الاصابة بالعين وما نفاها ونقل كلام غيره القائل ان القاتل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالسحر يقتل والقاتل بالعين لا يقتل لأن هذا ليس مما يريده ويقصده . واطال في بيان أسرار الحرف ونقل عمن لقيهم حقيقة الزايرجة .

ومن أحكامه ما لم تنقضه الأيام مثل قوله « إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته » و « ان خلق التجار نازل عن خلق الاشراف وبعيد عن المروءة » و « ان العلماء بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها » . ومن احكامه ما انتقض مثل العصبية في الدولة لا تدوم الا اربعة بطون اي مائة وعشرون سنة كما لا تدوم الثروة الا هذا القدر من السنين . ومنها غلوه في الانحاء على العرب من انهم اذا نزلوا بلداً أسرع اليه الخراب وانهم أبعد الناس عن سياسة الملك وعن الصنائع ، والغالب انه كان يقصد الأعراب سكان البوادي فهؤلاء لم يكن لهم استعداد اهل المدن والقرى لذلك نزلت الشريعة في أهل المدن وهم الذين قبلوا الدعوة أولاً ونشروها ، ودعواه ان العرب ابعد الناس عن الصنائع ينقضها ما كان للأندلسيين من الصناعات العظيمة التي أدهشت الغربيين لعهدهم وما هي الا من صنع ايدي العرب وقرائح علمائهم ومهندسيهم . ودعواه ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم من العجم غير صحيحة ذلك لأن من كان بعضهم يعدونهم من المؤلفين أعاجم على الأكثر كانت أصول اكثرهم عربية وهم نشأوا في ديار الفرس ثم ان الشعوب غير العربية التي تشرفت بالاسلام اكثر عدداً وأوسع ممالك من سكان جزيرة العرب الذين قاموا بكبر هذه الدعوة في السياسة والجندية والادارة فشغل العرب بالأمر المهم وتركوا الصنائع وما شابهها لأهل البلاد ومع هذا كان من مدنية العرب في جزيرتي صقلية والأندلس ما هو مفخرة الأزمان .

وأخطأ في قوله انه يشترط في الحاكم قلة الافراط في الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزله عمر بن الخطاب عن العراق وقوله لم عزلتني يا أمير المؤمنين ألعجز أم لخيانة ؟ فقال عمر لم أعزلك لواحدة منها ولكني كرهت ان احمل فضل عقلك على الناس . فأخذ من هذا ان الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن ابي سفيان وعمرو بن العاص لما يتبع ذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس من طبعه ، قال وتقرر من هذا ان الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لأنه افراط في الفكر كما ان البلادة افراط في الجمود والطرفان مذمومان الخ وهذا استنتاج في غير محله ذلك لأن الدول في أشد الحاجة الى الأذكياء في جميع فروع اعمالها ولولا ذكاء مشهود في رجال بني أمية ما قاموا بما قاموا به من الفتوح التي زينوها بمدنية كانت أرقى ما عرف من نوعها الى أيامهم . وقوله ان للدول اعماراً طبيعية وان الهرم اذا نزل في الدولة لا يرتفع قد جاءت الأيام بخلافه فان من دول اوربا ما هو قائم منذ قرون وكلامه هذا أخذه من مشاهداته في دول افريقية وما اليها .

خرج ابن خلدون على المألوف وما أحب مع هذا ان يجاري عوام المؤلفين في بعض أحكامهم على ساسة الأمة قديماً ولذلك قال فيه احد المعاصرين انه المدافع عن الدول والمحامي عن الأفراد فهو رجل دولة يمعن النظر كثيراً في التقارير التي تعرض عليه فيستخرج منها ما لا يحسن استخراجه كل أحد وقد يعلو في اجتهاده الى درجة السمو ويكبو أحياناً . من ذلك انه هفا هفوة فظيعة لما جارى فيها عامة عصره على خرافاته فأثبت الكشف ومعرفة الغيب بما يستعظم صدوره من مثل عقله فقال وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدركه سواهم وكذلك يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع ارادتهم . قال وان الكلام في كرامات القوم واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات أمر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من الحق ! وغريب قوله وقد يوجد لبعض المتصوفة واصحاب الكرامات تأثير في أحوال العالم ليس معدوداً من جنس السحر وانما هو بالامداد الإلهي لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الإلهي حظ على قدر حالهم وايمانهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبهذا التخريف أثبت انه من المحافظين مغال في صوفيته مأخوذ لمغربيته، وكان يسعه لو لم يعتقد في هذه الخرافات اعتقاداً جازماً ان يطرح بهذا المبحث عُرْض الحائط ولا يضير المقدمة في شيء بل وينقيها من العوسج والبلان . وهذه الهنات فى المقدمة كانت بمثابة عوذة لها من العين وبذلك يثبت عجز البشر وتغير افكارهم بتغير القرون والأجيال .

ومما يشير الى انه من المحافظين أيضاً دفاعه عن عثمان وخصومه وعن علي وأولاده وعن يزيد وأبيه وعن الحسين وجماعته وكلهم في نظره مجتهدون وكلهم يريد خدمة الاسلام فقال : واياك ان تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك . وبهذا الكلام نزع ابن خلدون ثوب المؤرخ النقاد ولبس ثوب الواعظ القصاص أو هو يريد أن يتأدب أدب السياسي المهذب مع الجماعة لا يقول لصاحب الأمر ما يزعجه فيرضى بالحالة الحاضرة على علاتها ويحاول ان يكمّ أفواه الرعية لأنها اذا قالت فعلت وما حسب حساباً للأهواء البشرية والمطامع الدنيوية فكلهم ما أخطأوا في نظره وكأنه يزعم انهم لا دخل لاراداتهم التي خلقها الله لهم فيما قضوا وامضوا وأغرب من كل هذا قوله وأعتقد مع ذلك ان اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ليقتدي كل واحد بمن يختار ! وقد قيل أي عالم لا يهفو وأي صارم لا ينبو وأي جواد لا يكبو .

مقدمة ابن خلدون هي درة تاج اعمال صاحبها، كتب رسائل وكتباً قبلها كانت من نمط تآليف معاصريه : شرح مبهم، وبسط موجز، ونقل ما يحسن، وتاريخه الكبير ليس فيه من جديد الا القسم المتعلق بالعرب والبربر واكثره منقول عن الطبري وابن الأثير اما المقدمة فهي الكتاب الذي احدث ثورة في افكار العرب وعدّ من أمهات كتب العالم ولا نعلم كتاباً علمياً ولا دينياً حاز شهرة المقدمة حاشا الكتب الستة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان اختلاط ابن خلدون بملوك عصره واطلاعه على اسرارهم وسياساتهم وما عاناه من أمرهم ومن ظلمهم عرف به ما يستتر في العادة عمن لا يلابسهم ولم يعمل لهم ، وتقلده الوظائف السياسية والادارية والقضائية ومعرفته رجال أكثر الأقطار ورجال كل أفق حتى مصر والشام واطلاعه علي نفسية الملوك والعظماء ومنهم تيمورلنك المخرب العظيم — كل ذلك مما تفرد به ولم يتيسر لغيره اضف الى هذا ذاك الذكاء البراق والأحكام الصحيحة التي خص بها دون سائر معاصريه حتى لقد ترجم له صنوه وصديقه لسان الدين بن الخطيب بأنه متقدم في فنون عقلية ونقلية وفخر من مفاخر الغرب قال هذا وابن خلدون في حد الكهولة فماذا كان يقول فيه بعد ان نضج في كل شيء ، لا جرم انه يقول انه مفخرة الغرب والشرق والاسلام والعرب .

ولنا ان ندعي بعد كل هذا ان ابن خلدون كان في تاريخه الكبير محافظاً كسائر من تقدمه وفي المقدمة حراً لأنه صاغها من علم واسع تخمر في قلبه وتقلب في صدره ثم أبرزها في خمسة أشهر في هذه الحلة العجيبة .

ويقضي الانصاف بأن نسلك ابن خلدون في سلك المجددين والمصلحين . ولما فوض اليه منصب الكتابة في الدولة وهو في أول العقد الثالث من عمره صدرت الكتب عن ديوانه خالية من السجع فاستغرب أهل الدولة هذا واتبعوه في طريقته ، وكانت الدول الاسلامية لا يصدر عنها في تلك العصور الا المسجع والمزدوج . وعلى هذه الطريقة سار في مقدمته فأبدع وأفاد ، ولو خلت من الاسجاع المتكلفة في فاتحتها لجاءت كلها كالعقد الثمين خرج من يد صائغ ماهر . وكان ابن خلدون ينظم الشعر وشعره منحط عن نثره بكثير قال انه تخدشت ملكته فيه بما حفظ من المتون المنظومة بالشعر والفقه والقراآت وغيرها . وكان يحفظ القرآن وشيئاً من كلام العرب وشعرائهم لكنه لم يكثر من الحفظ لأنه يقول ان الحفظ عائق عن التفكير فاختار هو طريقاً وسطاً . اسم ابن خلدون يخلد بمقدمته ففيها كل ابداعه .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net